

على هامش الحرب العالمية الأولى

١٩١٤ - ١٩١٨

كيف تستفيد مصر من دروس مهندسي فلسطين

للاستاذ أحمد بك رمزي

—•••••—

بين يدي كتاب عنوانه «دروس من تجارب الحرب العظمى»،
وضمه الجنرال الألماني البارون فون فريتاغ لودنجهوفن، وكان
صاحبه من خبرة كتاب ألمانيا العسكريين وأطولهم باعاً، وأقدرهم

فرعون ومواكبه، وإزيس وهوروس :

أبن (إزيس) تحتها النيل يجري حكمت فيه شاطنين وعرضا
أسدل الطرف كاهن رمليك في تراها، وأرسل الرأس خفضا
يمرض المالكون أسرى عليها في قيود الهوان عانين جرضا
وكان للكشف عن قبر توت عنخ آمون وما ينبي عنه
من حضارة رفيعة عميق الأثر في نفس شوق، ففضى يسجل في
شعره صفحة ناصعة من تاريخ هذا الوطن، ويصف تلك الحضارة
التي أبان عنها كشف ذلك القبر. ومن أهم ما أثار فيه تلك الموازنة
المؤلة بين هذا الماضي المشرق بالمجد والعامر بالفخار، وبين هذا
الحاضر المليء بالضعف والتأخر، واستمع إليه يخاطب فرعون قائلا:
قل لي أحين بدأ الشرى لك، هل جزعت على المرين؟
آنت ملكا ليس بالشاكي السلاح ولا الحصين
البر مغلوب الفنا والبحر مغلوب السفين
لما نظرت إلى الدنيا ر صدقت بالقلب الحزين
أقبلت من حجب الجلال على قبيل مريض
تاج الحضارة حين أشرق لم يمسدم حاقفين
والله يعلم لم يرد من قرون أربعين
وكان شوق يمتنى لعرض نهضة شاملة تناسب تاريخها
المشرق القديم.

أحمد أحمد بروي

مدرس بكلية دار العلوم - بجامعة فؤاد الأول

في الكتابة عن الحرب من الوجهة النظرية. وهو بروسي الأصل
ولسكنه ينحدر من عائلة كانت تسكن شواطئ بحر البلطيق،
في تلك المناطق التي ضمت إلى روسيا، وهاجرت عائلته إلى
ألمانيا، فانضم في الحادية والعشرين من عمره إلى إحدى فرق
الحرس البروسية وشغل قبل سنة ١٩١٤ وظيفة هامة في هيئة
أركان الحرب العامة في برلين، وما لبث أن ذاع صيته في السنين
التي سبقت الحرب الأولى، لاشتهاره بكتبه ومؤلفاته العسكرية،
التي نشرها عن فن الحرب وتاريخ المارك، ولما نشبت الحرب
العالمية الأولى رشحته خبرته وثقافته ليمين مندوبا عن الجيش
الألماني ويمثاله، في المجلس الأعلى لهيئة أركان الحرب العامة
لجيش الامبراطورية النمساوية المجرية.

وقد لس عن كتب عند بدء الحرب ضف الامبراطورية،
وأساب تفكك جيوشها، ولسكنه ياتمس الأعذار للعسكريين
النمساويين، ويقول إن جموع الجيوش التي حشدتها دولة العرشين
— عرش النمسا وعرش المجر — قد استسلمت في القتال وحاربت
بشجاعة، وجاءت هزيمتها نتيجة للأخطاء التي سببتها الهيئات
النياية في البلدان واهمالها لطلبات هذه الجيوش وقت السلم.
والمعروف أن فشل الخطط الهجومية الألمانية في الميدان
الغربي أدى إلى اعتزال السكوت مولتسكه من رئاسة هيئة
أركان الحرب العامة، فتسلمها فون فالكهين الذي دعا مؤلف
الكتاب وعينه ضمن مساعديه.

واقصر عمل مولتسكه على رئاسة بعض الأقسام الفنية التي
بقيت في برلين، أما الأعمال الأساسية التي من صميم عمل هيئة
أركان الحرب العامة، فاستمرت في الميدان تحت اشراف
القيادة العامة.

ولما أخفق الهجوم الألماني أمام حصون «فردان» طلب إلى
الريشال فون هندنبرج في أوائل أغسطس ١٩١٦، أن يخلف
فالكهين في منصبه وألحق مؤلف الكتاب كمساعد للجنرال
لودندورف، يد هندنبرج اليمني، وقد بقي يشغل هذه الوظيفة
حتى مات مولتسكه في يونيو من السنة التالية، فخلفه الجنرال
لودنجهوفن في وظيفته، أي شغل منصب الرئيس المنتدب لرئاسة

وهو في ميدان القتال بفرنسا ، وقدمه للشعب وللأجيال القادمة التي لم تكن وجدت في ذلك الوقت ، فنشأ على قراءته وترى على أفكاره ومبادئه جيل من الناس يأكله ، هو الذي عاش بين سنة ١٨٧٠ وسنة ١٩١٤ ومن هذا الجيل نشأ الجيش الذي خاض معارك الحرب العالمية الأولى .

وكذلك كتاب الجنرال لودنجهوفن أثر في الأجيال التي جاءت بين سنة ١٩١٨ وسنة ١٩٣٩ أي بين هزيمة ألمانيا الأولى ثم قيامها تحت نظام النازية ودخولها الحرب العالمية الثانية : لأن الدعوة التي تبناها مؤلف الكتاب يقول بطرح المبادئ العالمية والاقلاع عن أفكار السلام الدائم ، والأخذ بفكرة انشاء نظام عسكري جديد لألمانيا موطد على دروس الحرب العالمية الأولى ومدعم بتجاربيها الفايية ومتمم على تقدم العلوم الحديثة وتطور فنون الحرب ، فهو يدعو إلى أن تخلق ألمانيا لنفسها من هزيمتها نصراً ، وهذا ما وفق الشعب الألماني اليه بين حريين ، إذ جعل من تعاليم صاحب الكتاب دوافع تسمية مكتبته من تنظيم أكبر قوة عسكرية في العالم وأضخم آلة قتال رآها الناس في الفترة التي وقعت بين الحربين العالميتين الأولى والثانية .

وهو من القائلين بأن الحرب غريزة متمكنة من طبيعة البشر ، فكما أن طبيعة الناس لا تتغير فالحرب ستبقى ملازمة للإنسان في مستقبل أيامه كما لازمته آلاف السنين وعشرات القرون .

وهذه عقيدة تملكك الشعب الألماني الذي ألف الحروب ونشأ مدرباً تحت السلاح ، ولذلك تقبلت هذه العقيدة عقلية الجماعات ، فاصبحت حقيقة منطقية ثابتة وإيماناً لا يحتمل الشك ولا يتطرق اليه التردد والضعف . وهو يقول ان الروح العسكرية ليست اختراعاً اوجدته روسيا لنفسها أو طرية أخذتها من الأمم الأخرى ، وإنما الروح العسكرية هي روسيا نفسها . ولما كانت روسيا أقوى دول ألمانيا ، فليس لدى الألمان أحزاب سلم وأحزاب حرب ، وإنما هناك أمة واحدة مقدس الواجب ، وتؤمن بظلمة الجيش ، وكل اتجاه يخالف هذا القول يعد هراء من قبيل اضاعة الوقت ، أو المناداة بفكرة لا يابها لها للاني واحد وهو يجهر في مقدمة كتابه بقوله « أن الواجب يفرض علينا أن نكون على بينة ونثبت من الدروس والتجارب والحوادث

أركان الحرب باقسامها التي بقيت في رلين ، وكان حملها قاصراً على المسائل الفنية الصرفة ولا تتدخل في تنسيق العمليات الحربية وسير القتال في الجبهات .

وقد انتمت عليه حكومته عقب توليه هذا المنصب بوسام الاستحقاق من طبقة السلم . فكان هذا الانعام دليل تفوقه وأهليته وخبر اعتراف رسمي له بأنه أقدر الكتاب المسكرين في الجيش البروسي .

والمروف أن الذي أنشأوسام الاستحقاق في طبقاته العسكرية هو فردريك الأكبر عاهل بروسيا ، وقد جرت التقاليد بالانعام به على القواد والضباط الذين يظهرون مهارتهم في الحروب ، أما وسام الاستحقاق للسلم ، فقد أنشأه فردريك وليم الرابع عام ١٨٤٢ وأوقفه على من يظهر قدرته على الكتابة في الفنون العسكرية من الوجوه النظرية والعملية البحتة ، وعليه فإن حصوله على هذا الرسام دليل تقدير لمؤلفاته وأنها بلغت درجة كافية من النضوج بحمله أول ضابط حصل على وسام الاستحقاق من طبقة السلم في زمن الحرب .

لقد كتب المؤلف كتابه « دروس من تجارب الحرب المظلم » والحرب القائمة ، ثم طبع بعد انهزام ألمانيا ولم يكذب يظهر في عالم المطبوعات حتى تلغته الصحافة بتعليقاتها السطيفية ، وقد لفت الأنظار اليه ما جاء في بعض فصوله عن مستقبل الجيش الألماني وخاتمته التي تقول « لا تزال مستمدين للحرب »

وأدى نشر فصوله على هذا اللا أن أخذت الجرائد تناقشها بجمارة وحماص وتشرح بأسباب الطرق التي لا بد أن تتبعها ألمانيا بعد انكسارها في الحرب لتستعد إلى دخول حرب أخرى ، فاضطرت الحكومة الديمقراطية أن تضيق على الصحافة وأن تحول دون نشر تعليقاتها على الأفكار التي تضمنها الكتاب ، ولكنها شجعت نشره في داخل بلادها ومنعت ارساله للخارج فلم يتعد ما تسرب منها إلى البلاد الأجنبية عدداً محدوداً .

ونظرة لهذا الكتاب نجملنا بحكم بأنه خطوة تمهيدية لتاريخ الحرب العالمية الأولى ، فهو مؤلف موجه للشعب الألماني لالرجال الجندي ، ولذلك عده البعض شبيهاً بكتاب المارشال مولتكه الكبير الذي قاد الحرب الفرنسية الألمانية ١٨٧٠ وخطه بقله

وهي في القسمين الأخيرين من كتابه : « الجيش في المستقبل » ثم كلمته « لتبقى مستمدين للحرب » وهما عبارة تجاربه .

والذي دفعني إلى إعادة النظر والتأمل في هذا الكتاب وفي غيره من مؤلفات القائد الألماني . بعد أن بقيت على رف مكتبي أكثر من عشرين عاما - هو ما يماود الرأي العام المصري - من وقت لآخر - من الرغبة في التعرف نتائج الحرب في فلسطين ، وأثرها في بقظة الوعي القومي بمصر ، والعمل على استعادة القيم الخلقية التي يبدوا لكثيرين منا أنها « انهارت بعد الصدمة الأولى ولما كنت من المؤمنين بأن قيمة أي نظام وبقظة أي شعب يرتكزان على ما يبذله كل شعب من الشعوب من العمل الصامت المستند على ارادة وفكر للخروج من آثار الهزيمة التي عاناها حتى لا نهد من كيانه - رأيت من أولى المسائل التي يجب أن يهتم بها الشعب المصري وأهل الرأي فيه هي مشكلة الحرب الفلسطينية وأثرها وما اقتته علينا من دروس .

فهل لدينا هيئة قاعة أخذت على عاتقها جمع المدونات والوثائق وتبويبها ودراستها حتى نستخلص بعض الحقائق ونسجل على أنفسنا ما بدأ من تقصير في صفوفنا وأنظمتنا ؟

أظن أننا لم نفكر بعد في شيء من ذلك . اذن أصبح واجبنا على المفكرين وأهل الرأي أن يسدوا هذا النقص وأن يكتبوا وينشروا على الملأ ما يعلمون ، حتى يشعر الشعب المصري بأن هزيمة فلسطين ليس معناها أن يستمر تحت كنفها وفي ظلها إلى الأبد .

إنما هي نتيجة سلسلة من الأخطاء السياسية والعسكرية تمت على أيدي أناس لا يمتنون بعملة إلى الفن الحربي ولا يعرفون شيئا عن أساليب السياسة الدولية .

ان المركز الخاص الذي وجدت فيه مصر والبلاد العربية يجب أن يشرح لها بأسباب ، وكذلك أما كن التجمع والحشد؛ ويستلزم الأمر بيان الأسباب التي جعلت زحف الجيوش العربية - ذات التفوق الممدى - متسلكتا وغير مرتبط بالزمن . والاجابة على السؤال المعروف الذي طالما وجهه أحد قواد ألمانيا في مؤلفاته ا « هل يأتي الآخرون لشد أزورنا وهل ينضم حلفاؤنا إلى صفوفنا حتى يكون تدخلهم في الحركة الناشئة نافعا وكيف يأتي

التي كانت نتيجةها وخيمة علينا ، أنه فرض علينا أن نبهجها وندرسها ونحللها في أنسام الجيش وهيئات الحكومة ، إننا دفعنا الثمن غالبا للحصول عليها في ميادين القتال ، وفي داخل البلاد وخارجها ، فعلينا أن نوجه كل نشاطنا القومي ، ومانضمه بين أيدينا انظمتنا العسكرية من وسائل ، لكي نطيل الدرس ونقلب أوجه البحث من غير امهال أو تردد، ولكن بمزيمة وبصيرة وبدون إضاعة وقت : إذ هنا يبرز الوقت كما يبرز في الحروب كعامل فعال له وزنه وقيمه » .

« اننا لا نستطيع أن نستخلص الآراء الصائبة التي تنفعنا أو نحدد النتائج العملية التي تصلح لنا ، إذا قصرنا عملنا على النواحي العسكرية وحدها ، فهي مع أهميتها القصوى لا نستطيع فصلاها عن تطور السياسة العالمية ازاننا ، ولا نتمكن من الاستفادة من هذه الدراسة إذا أهملنا التدقيق في الأحوال الاقتصادية العامة وما أصاب بلادنا منها ، فنحن أمام ما علينا ولا لنا ، أي أمام انتصارات وفكبات ، والتجارب التي هي في الحالتين مفيدة لنا نعم لكي نعمل في المستقبل على قواعدها ونسير بهديها » ان الناية من تأليف هذا الكتاب هو اعلام الجيش والشعب بالآراء الصائبة التي اثبتت الحروب مقدار صلاحيتها ووضع الحقائق والنتائج التي أفتتتنا دروس القتال بصحتها : فنحن أمام حوادث عسكرية منها ما هو من صميم فن الحرب وما هو من عمل السياسة ؛ وما هو اقتصادي بحث ولكنها دروس نملئناها ، بدماء أبنائنا وتضحياتهم الكبرى وموتهم في سبيل المثل الأعلى للبلاد : فإقتنعنا الدليل بصحته تمسكنا به ، وما أظهرت الحرب بطلاته تجنبتاه ، ودعونا إلى الانقلاع عنه . وما ثبت نجاح شيء منه وبطلان بعضه عملنا على تحويره واصلاحه ليقلب النجاح عليه . »

وعلى هذا النمط يسير المؤلف في شرح نظرياته وآرائه وتوجيهاته بوضوح وصراحة ، فيعرض الحالة السياسية والاقتصادية مدة الحرب لدوائى الوسط - ألمانيا والنمسا - ويهطينا صورة للحالة النفسية الامة متمداً سيكولوجية الجماعات وأثرها في رجال الجيش ثم يتكلم عن القيادة وعملها .

وبعد هذه الفصول باكملها كقدمة للنتائج التي استخلصها